إحياء العروض(*)

د. محمد حسان الطيان

حكى ابن جني في الخصائص عن الخليل: «أن الأصمعي كان أراده على أن يعلِّمَهُ العروض، فتعذَّر ذلك على الأصمعي وبعُدَ عنه، فيئس الخليل منه فقال له يوماً: يا أبا سعيد، كيف تقطّع قول الشاعر:

إذا لم تستطعْ شيئاً فدَعهُ وجاوزْهُ إلى ما تستطيعُ

قال: فعلم الأصمعي أن الخليل قد تأذّى ببعده عن علم العروض فلم يعاودْه فيه[1]».

ليست صعوبة هذا الفن إذن وليدةَ هذا العصر، ولا نتيجة من نتائج تدنّي مستوى التعليم، أو ثمرةً أعقَبناها طولُ الأمد وبعدُ الشُّقَّة وتبلّدُ الحسِّ وتنوعُ فنون الأدب. وإنما هي مشكلة قديمة قدمَ هذا الفن نفسه، إذ تعود إلى عصر الخليل واضع العروض، وقد اصطلى بنارها الأصمعي، وهو من هو معرفة بالشعر ورواية له ودرايةً بأساليبه وفنونه ونقداً لغرره وعيونه.

(*) عنوان البحث وبعض ما جاء فيه مقبوسٌ من كتاب (إحياء العروض) للمرحوم الأستاذ عز الدين التنوخي أمين مجمع اللغة العربية بدمشق، ومدرّس العروض والقافية في جامعات الشام، والعراق، ومعاهدهما، وهو كتاب نحا فيه مؤلفه نحو التيسير في تعليم العروض، ونفى عنه كثيراً من غوائله.

(١) الخصائص ١/ ٣٦٢.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على أن الخطب اليوم قد عمّ، إذ سرى اعتياص هذا الفن إلى صفوف بعض المدرّسين والمتخصصين بله الطلاب والمتعلمين. «لضياع هذا العلم الجليل في زماننا، وقلة الاحتفال به وبأهله[1]».

وبتّ تفتقد هذا الحسّ العروضي لدى الكثرة الكاثرة من خريجي الجامعات ذوي التخصص الدقيق في العربية وآدابها. وصار الأمر إلى ما قاله أبو العلاء:

تولّى الخليلُ إلى ربّهِ ... وخلّى العَروضَ لأربابِها

فليسَ بِذاكرِ أوتادِها ... ولا مرتجٍ فضلَ أسبابِها

يوصَف العروضُ بأنه العلم الموسيقي السهل بطبيعته الصعب بطريقته. ولهذه الصعوبة أسباب مختلفة يمكن أن نذكر منها:

١ــ إغفال الصلة بين العروض من ناحية وبين الموسيقى والنغم والإيقاع من ناحية أخرى. مع أن الصلة بينهما قديمة تعود إلى نشأة العروض وابتكاره، ولو عدنا إلى أخبار هذه النشأة لوقفنا على حقائق كثيرة تجلو هذه الصلة.

من ذلك ما رواه أبو الحسن الأخفش عن الحسن بن يزيد أنه قال:

«سألت الخليل بن أحمد عن العروض فقلت له هلاّ عرفتَ لها أصلاً؟ قال: نعم، مررت بالمدينة حاجّاً، فبينما أنا في بعض طرقاتها إذ بصُرت بشيخ على بابٍ يعلّم غلاماً وهو يقول له قل:

نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم نعم ... نعم لانعم لالا نعم لا نعم لالا

(١) نمط صعب ونمط مخيف ص ٨٨ – ٨٩.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال الخليل فدنوت منه فسلمت عليه وقلت له: أيها الشيخ ما الذي تقوله لهذا الصبي؟ فذكر أن هذا العلم شيء يتوارثه هؤلاء الصبية عن سلفهم وهو علم عندهم يسمى التنغيم لقولهم فيه: نعم.

قال الخليل: فحججت ثم رجعت إلى المدينة فأحكمتها[1]».

ومن ذلك ما يروى من أن الخليل كان يقطع بيتاً فرآه ولده في تلك الحالة فخرج إلى الناس يقول: إن أبي قد جُنَّ، فدخل الناس عليه وهو يقطع البيت فأخبروه بما قال ابنه، فقال له:

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عذرتَني ... أو كنتَ تعلمُ ما تقولُ عذلتكا

لكنْ جهلتَ مقالتي فعذلتَني ... وعلمتُ أنك جاهلٌ فعذرتكا

وقيل: إن الخليل مرّ بالصفّارين فأخذ العروض من وقع مطرقةٍ على طَسْتٍ[2]، ولا ريب أن الخليل كان على علم جم بالموسيقى، بل إن بعضهم ينسب إليه اختراع علم الموسيقى العربية، وتكاد مصادر ترجمته تجمع على أنه صنف كتاباً في الإيقاع وآخر في النغم[3]. قال عنه السيوطي: «وكذلك ألف كتاب الموسيقى فَرَمَّ [أي ربط] فيه أصناف النغم، وحصر به أنواع اللحون، وحدَّد ذلك كله، ولخَّصه، وذكر مبالغ أقسامه، ونهايات أعداده، فصار الكتاب عبرة للمعتبرين وآية للمتوسِّمين[4]».

(١) المستشار في العروض وموسيقى الشعر ص ١٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/٤٣١.

(٣) معجم الأدباء ١/ ٧٤ــ ٧٥، والمزهر ١/ ٤١، والفهرست ص ٤٩.

(٤) المزهر ١/ ٨١.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالصلة إذن بين العروض والموسيقى قديمة ثابتة وإغفالها يؤدي إلى فصم عرىً وثيقةٍ فصماً يخلُّ بفهم العروض وإتقانه وتطبيقه.

٢ــ التوسل إلى تقطيع الأبيات بوضع الإشارات المختلفة التي تمثل المتحرك والساكن (/ ٠ أو ــ .) ولا تفيد شيئاً في معرفة وزن البيت أو الكشف عن مواطن كسره وما قد يكون فيه من خلل، بل هي وسيلة يتحول فيها هذا الفن السماعي المعتمد على الذوق إلى رموز مكتوبة لا طائل منها. وأذكر أن علاَّمة الشام أستاذنا النّفّاخ رحمه الله كان ينهانا عن سلوك هذا المسلك ــ أي عن استعمال هذه الإشارات التي لا تغني عن المقطِّع شيئاً ــ وكان أن اعترض عليه أحد الطلبة بأنه لا يقوى على التقطيع إلا بهذه الوسيلة فأجابه الأستاذ على التوّ: ﴿ قُلْ مَنْ كانَ في الضّلالَةِ فلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحمنُ مَدًّا﴾ [مريم /٧٥].

٣ــ ربطُ تعلّم العروض بفهم دوائر البحور، وهي دوائر تدل على عبقرية الخليل وقوة إبداعه في تأليف تفعيلات البحور، وفكّها بعضها من بعض، والإشارة إلى ما استعمل من البحور وما أهمل[1]، لكنها على ما فيها من إبداع وابتكار لا تفيد في تيسير معرفة الوزن ولا تقوّي الحسّ العروضي بل لا تكاد تسهم في ذلك، ووقعها على المتعلم الريِّض المبتدئ أشبه بوقع الطلاسم والمعمَّيات، ومن طريف ما يروى «أن محمد بن عبد الوهاب الثقفي لقي ابنَ مُناذِر الشاعر – وكان بينهما إِحْنَةٌ – في مسجد البصرة ومعه دفترٌ فيه كتاب العروض بدوائره، ولم يكن محمدٌ يعرف

(١) انظر ما كتب الأستاذ محمود شاكر في الكشف عن سرِّ هذه الدوائر في كتابه النفيس (نمط صعب ونمط مخيف). ص ٨٩ وما بعدها.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العروض، فجعل يلحظ الكتاب ويقرؤه فلا يفهمه وابن مناذر مُتغافلٌ عن فعله، ثم قال له: مافي كتابك هذا؟ فخبَّأَهُ في كمِّه وقال: وأيُّ شيءٍ عليك مما فيه؟ فتعلق به ولببّه فقال ابن مناذر: يا أبا الصلت الله الله في دمي، فطمع فيه وصاح يا زنديق، في كمّك الزندقة، فاجتمع الناس إليه، فأخرج الدفتر من كُمّه وأراهم إياه، فعرفوا براءته مما قذفه به، ووثبوا على محمد بن عبد الوهاب واستخفوا به، وانصرف بخزيٍ[1] ،...». وهذا وقد تناول نفرٌ من علماء العروض المحدثين الاحتكام إلى هذه الدوائر بالنقد.

٤ــ مواجهة الطالب بحشد من المباحث والمصطلحات العروضية المتداخلة ينوء بحفظها ويطول عهده بتطبيقها أو بتوزيعها على أبحرها الخاصة بها، وحقُّها أن ترجأ وتوزَّع على بحورها فلا تذكر أمام الطالب إلا بعد معرفته البحر الذي ترد فيه.

٥ــ البدء بالصعب من البحور والتدرج نحو الأسهل مع أن طبيعة الأمور تقتضي العكس، فالبدء بالأسهل يعين على فهم الأصعب وأعني بالأسهل ما تألف من تفعيلة واحدة بسيطة أو خفيفة كفاعلن وفعولن إذ إن تعلمها ومعرفة إيقاعها يعين الطالب على تعلم التفعيلات الأطول، ويمهد لمعرفة تداخل التفعيلات المختلفة.

إنّ أسباب الصعوبة هذه على اختلافها جديرة بالدراسة والبحث، وفي تجنّبها تيسير لتعليم العروض، وتذليل لكثير من العقبات المعترضة طريقَه، على أنّ أهمّها وأكثرها تأثيراً في تعليم العروض السببُ الأول، وهو إغفال الصلة بين العروض والموسيقى والإيقاع، ففي إعادة هذه الصلة عودٌ

(١) الأغاني ١٨/ ١٨٧ ــ ١٨٨ (ط دار إحياء التراث العربي).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالعروض إلى منابعه الأولى وموارده الصافية. وهو ما يرمي إليه هذا البحث.

علاقة العروض بالغناء والإيقاع:

يقول حسّان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ :

تغنَّ بالشِّعرِ إمّا كنتَ قائلـــهُ إنَّ الغناءَ لهذا الشعرِ مضمـــارُ

والعلاقة بين الشعر وبين الموسيقى والنغم والإيقاع علاقة وثيقة لا تكـــاد تخفى على أحد وأمثلتها في أدبنا القديم أكثر من أن تحصى أو تستظهر.

ولعل من أبرز مظاهرها الحُداء الذي كانت تساق به الإبل فإذا ما أســـرع الحادي أسرعت الإبل وإذا أبطأ أبطأت، ومنه الحديث المشهور «ارْفُقْ يا أنجشـــةُ ويحك بالقوارير(١)»يريد أن يبطىء وقع الحُداء لتبطئ الإبل وقع المسير.

ومن نحو هذا ما يروى عن النابغة حين أقوى في شعره فلم ينبهه على ذلك إلا تغني الجواري ومدّهن الصوت بحركة حرف الروي وهو الدال في قوله:

زعم البوارحُ أنَّ رحلتنا غـــداً وبذاكَ خبَّرنا الغرابُ الأســـودُ

لا مرحباً بغدٍ ولا أهـــلاً بِـــهِ إنْ كانَ تفريقُ الأحبةِ في غـــدِ

ولأهمية عنصر الموسيقى في الشعر قيل: الشعر موسيقى، وقال النقاد عن البحتري: أراد أن يشعر فغنى. ولا أدلَّ على ذلك أيضاً مـــن كتـــاب الأغاني الذي رمى منه مصنفه إلى جمع أشهر أغاني عصره فجـــاء ســـجلاً ضخماً لأشعار العرب وأخبار الشعراء والمغنين على حدٍّ سواء.

ومن ثمَّ كان العروض علم إرهاف الآذان وإتقان الألحان، يتطلـــب

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٩٤(كتاب الأدب، الحديث رقم ٥٨٥٦).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أول ما يتطلب ذوقاً سليماً وأذناً مرهفة تميز الإيقاع الصحيح من الإيقاع المختل، والنغم المنضبط من النغم النشاز.

من أجل هذا كله لابد من العودة إلى هذين العنصرين في معرفة العروض وهما النغم والإيقاع، ويمكننا الإفادة منهما على النحو التالي:

١ــ النغم (اللحن):

ولا أعني به مطلق النغم، وإنما المراد طريقة أداء الأغنية أو النشيد أو تلحينها وغناؤها، وكنت مستطيعاً، كما قال العلامة الراحل محمود شاكر: «أن أهزِل باسم الغناء والنغم فأستولج في كلامي ألفاظاً للتغرير والإثارة، فأقول: «السِّمْفُني» و«الهَرْمُني» وكُروباً وراء ذلك كثيراً!! ولكني آثرت أن أدع الأمر حيث هو من القرب...[1]» وأنا أوثر ما آثر الشيخ رحمه الله فأقول: كلُّ بحر من بحور الشعر يمكن أن ينطبق على أغنية محفوظة أو أكثر، أو بعبارة أخرى يمكن أن يغنّى وينشد كما تغنى تلك الأغنية أو ينشد ذلك النشيد، فتكون هذه الأغنية أو النشيد بمنزلة المفتاح لهذا البحر، فإذا ما حاول الطالب أداء بيت من الشعر ينتمي إلى هذا البحر على لحن تلك الأغنية طاوعه اللحن وانقاد له الغناء، وإذا ما حاول أداء بيت آخر لا ينتمي إلى هذا البحر على لحن تلك الأغنية تأبّى عليه اللحن و لم ينقد له الغناء، ومن ثم يكون قادراً على أن يحكم على ذلك البيت الذي انقاد له فيه الغناء بأنه ينتمي إلى ذلك البحر الذي تنطبق عليه الأغنية، وأما ذلك الذي لم ينقد له الغناء فيه بتلك الأغنية فإنه يبحث له عن أغنية أخرى لكي يصل إلى تحديد بحره. ولنأخذ مثالاً على ذلك البحر

(١) نمط صعب ونمط مخيف ٢٧٨.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المتدارك:

متداركُنا نغمٌ عَجِلُ فعلن فعلن فعلن فعلن

فهو ينطبق على لحن قصيدة الحصري القيرواني التي تشدو بها فيروز:

يا ليلُ الصبُّ متى غَدُه أقيامُ الساعةِ موعدُه

وينطبق كذلك على تلحين الموسيقار محمد عبد الوهاب لقصيدة شوقي التي عارض بها قصيدة القيرواني:

مضناكَ جفاهُ مرقدُه وبكاهُ ورحمَ عُوَّدُه

وينطبق على لحن القصيدة التي يؤديها الأستاذ صباح فخري:

يا صاحِ الصبرُ وهى مني وشقيقُ الرُّوح نأى عنّي

فإذا ما حاولنا تأدية أي بيت ينتمي إلى البحر المتدارك، وفق ألحان هذه الأغاني طاوعنا الأداء وانقاد لنا اللحن فدلَّ ذلك على صحة انتماء هذا البيت إلى البحر المتدارك في حين لا يصحُّ ذلك في أي بيت لا ينتمي إلى البحر المتدارك، وسنطبِّق ذلك على المثالين التاليين فننشدهما وَفْق الألحان السابقة:

الأول لناصح الدين الأرّجاني:

سِرْبٌ قد عنَّ بذي سَلَمٍ وغدا بفؤادي أغيدُه

والثاني لشوقي:

النيلُ العذبُ هو الكوثرْ والجنةُ شاطئُهُ الأخضرْ

وكذلك معظم بحور الشعر، إذ ينطبق كلٌّ منها على أغنية مشهورة أو نشيد معروف يمكن أن يكون مفتاح ذلك البحر، فالمتقارب على النشيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السوري، والرمل على النشيد الجزائري، والوافر على الأغنية الشعبية المعروفة (سكابا يا دموع العين سكابا)... وهكذا.

وفيما يلي جدولٌ يوضّح مفاتيح أشهر البحور من الأغاني والأناشيد المختارة:

اسم البحر	مفتاحه	ملاحظات
المتدارك	يالليلُ الصبُّ متى غدُهُ مُضناكَ جفاهُ مرقدُهُ ياصاحِ الصبرُ وهى منّي	أداء فيروز الموسيقار محمد عبد الوهاب صباح فخري
المتقارب	حماة الديار عليكم سلام	النشيد السوري
الرمل	قسماً بالنازلاتِ الماحقات والذي أسكَرَ من عَرْفِ اللمى ياغزالي كيفَ عنّي أبعدوك	النشيد الجزائري موشح لصباح فخري = = =
الوافر	سكابا يادموع العين سكابا	موشح لصباح فخري
البسيط	عالروزنا عالروزنا كُل الهنا فيها مولاي صلِّ وسلمْ دائماً أبداً	أغنية لفيروز البردة للبوصيري
الرجز والكامل	اللهُ أكبرُ فوقَ كيدِ المعتدي صلّوا عليه وسلّموا تسليما	النشيد الليبـــي نشيد ديني
الهزج ومجزوء الوافر	بلادُ العربِ أوطاني	نشيد قومي معروف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ــ الإيقاع:

كل شعر ــ بل كل كلام ــ يتألف من حروف متحركة وأخرى ساكنة، فإذا ما اقترن الحرف المتحرك بالحرف الساكن ألّفا مقطعاً واحداً طويلاً نحو: قا، لَمْ، في، عن،... إلخ.

وإذا اقترن المتحرك بالمتحرك ألّفا مقطعين قصيرين نحو: لَهُ، بِكَ، ...إلخ.

وبعبارة أخرى فإن الحرف المتحرك يؤلف وحدَهُ مقطعاً قصيراً، ويمكن أن تتتابع الحروف المتحركة فتكوِّن كلها مقاطع قصيرة إلى أن يأتي حرف ساكن ليؤلف مع ما قبله مقطعاً طويلاً نحو:

كَتَبَ كَتَبَهَا نُوحِيهَا

تِتِ تِتِتِكْ تِكْ تِكْ تِكْ

٣ مقاطع قصيرة ٣ مقاطع قصيرة + مقطع طويل ٣ مقاطع طويلة

والإيقاع يقتضي أن نقابل كل حرف متحرك بنقرة وكل حرف ساكن بعدم النّقرة فإذا تتابعت الحروف المتحركة تتابعت النقرات، وإذا جاء الساكن انقطعت، وهكذا يمكن أن تكون التفعيلة: (**فاعلن**) مقابلة للنقرات تِكْ تِتِكْ. و(**فعولن**) مقابلة للنقرات تِتِكْ تِكْ. (التاء هنا تقابل الحرف المتحرك والكاف تقابل الحرف الساكن)، فإذا أخذنا المثال التالي:

زرنا يوماً قوماً عُرْباً قالوا أهلاً سهلاً رحباً

وقرأناه ببطءٍ مع الإيقاع وجدنا إيقاعاته أو نقراته على النحو التالي:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

زرنا يوماً قوماً عرباً
تك تك تك تك تك تك تك تك
قالوا أهلاً سهلاً رحباً
تك تك تك تك تك تك تك تك

وهو أمر نصنعه بطبيعتنا كلما سمعنا كلاماً موزوناً أو ملحناً، فالحركة تقابلها النقرة والسكون يقابله السكون.

وإذا أخذنا بيتاً آخر:

شعر نثر علم أدب قلب فكر نور أرب

وقرأناه إيقاعاً وجدنا له الإيقاع نفسه مع اختلاف الجزء الأخير من كل شطر وهو (أَدَبٌ وأَرَبٌ) فإيقاع كل منهما (تتتكْ تتتكْ) خلافاً لإيقاع سائر البيت ففي كل منهما مقطعان قصيران ومقطع طويل.

وهكذا تختلف الإيقاعات باختلاف التفعيلات. ومن المعلوم أن التفعيلات ثمانٍ: أربعٌ أصولٌ يتفرع عنها أربعٌ فروعٌ، وذلك بقلب الأصول على النحو التالي:

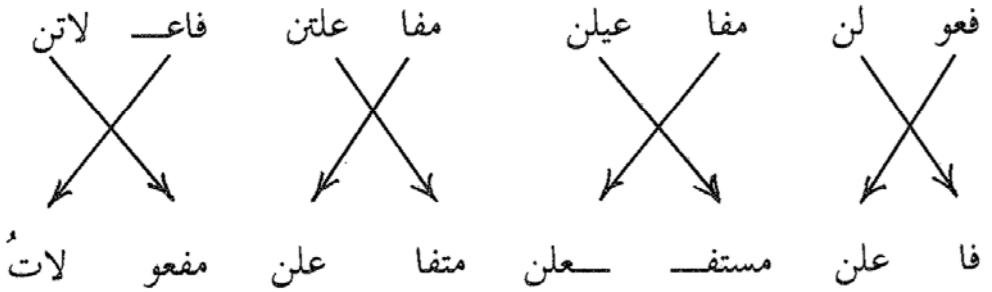

فإذا شفعناها بإيقاعاتها كانت على النحو التالي:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التفعيلة	فعولن	مفاعيلن	مفاعلتن	فاعلاتن
إيقاعها	تتكْ تكْ	تتكْ تكْ تكْ	تتكْ تتتكْ	تكْ تتكْ تكْ
التفعيلة	فاعلن	مستفعلن	متفاعلن	مفعولات
إيقاعها	تكْ تتكْ	تكْ تكْ تتكْ	تتتكْ تتكْ	تكْ تكْ تكْ تـ

ولعل من نافلة القول هنا أن نشير إلى أن ما يعتور التفعيلات من تغيرات بالنقصان أو الزيادة، يقابله تغير بقدره في الإيقاع، مثل: فَعُولُ يقابلها: تتكْ تـ. ومَفَاعِلُن يقابلها: تتكْ تتكْ.. وهكذا. وبذلك لا يقتصر الإيقاع على تقطيع البيت ـــ بعد معرفة بحره غناءً ـــ وإنما يعين إلى ذلك على تحديد ما اعتراه من جوازات، وما أصابه من علل وزحافات.

مراجع البحث

١ـــ إحياء العروض، عز الدين التنوخي، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٣٦٦هـ ـــ ١٩٤٦م.

٢ـــ الأغاني، الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي.

٣ـــ الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر بيروت ـــ ط٢.

٤ـــ سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزملائه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ ـــ ١٩٨٢م.

٥ـــ صحيح البخاري، بعناية د. مصطفى البغا، دار القلم، دمشق، ١٩٨١م.

٦ـــ الفهرست، ابن النديم، تحقيق رضا تجدّد.

٧ـــ المزهر في علوم العربية وأنواعها، السيوطي، بعناية محمد أحمد جاد المولى وزميليه، دار إحياء الكتب العربية.

٨ـــ المستشار في العروض وموسيقى الشعر، د. محمد هيثم غرّة، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب دمشق، ط١، ١٤١٥هـ ـــ ١٩٩٥م.

٩ـــ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠ـــ نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة، ط١، ١٤١٦هـ ـــ ١٩٩٦م.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net